في التأويل وبعض مفارقات الأسلوب

– القسم الأول–

أ. م.د . نصيرة أحمد

كلية الآداب – جامعة بغداد

انّ الشعر مكوّن لغويّ تفرض طبيعته الاثارة في ذهن المتلقي ،وتعبث بالمواضعات الفكرية والجمالية التي مضى عليها ،وتملي عليه نمطا معينا من الفوضى المستحدثة التي تفترض بنية جمالية ومعرفية لها اطرافها المتعددة ،ونستطيع ان نقول ان البناء الشعري تغيير شامل بمعنى الكلمة لايخضع لقانون ثابت اولمرجع محدد حتى قوانين اللغة ذاتها. فالنص الشعري حوار ذهني مشترك ممتد لايتوقف عند حد واضح،يكون الفاعل الاول فيها الشاعر واداءه ،ومستوى الجهد المبدع وفعله ثانيا ،والمتلقي واجراءاته الفهمية الاسقاطية على بنية النص ثالثا ، ولايمكننا ان نتصور ان هذا التسلسل المتداعي حدي واضح ،بل ان العملية متشابكة لاتخلو من التداخل في الادراك والوعي الذاتي التوصيلي ،الذي تشترك فيها جميع اطراف المكون الابداعي الشعري .إن إنتاج النص لحظة انفعالية خاصة ترقى الى الذهول الوقتي الذي يظهر في حدس الشاعر ورؤيته النشطة في اتجاهات مختلفة ، فضلا عن ان هذه اللحظة استقطاب للتسرّب الدقيق لمواضعات ورموزونماذج وانساق عشوائية شتى يخضعها الشاعر لادائه واجراءاته ، وهذا المزيج يبدو غير متجانس ويصعب فصل اجزائه يمضي باتجاه التمثل اللغوي ، فلاطريق للتهيؤ الشعري غير ولوج عالم اللغة بمستويات مختلفة .

ان بنية الشعر تعتمد على " مبدأي الاختيار والتكثيف "[1] الاختيار للسياق الذهني /اللغوي ثم تدخل عملية التوالد المتداعي المكثف للمحاور الدلالية الناضجة في ذهن الشاعر الحبلى بالتراكمات السياقية اللغوية والصورية المهيأة

للمثول النصي حيث ينبغي تظهيرها موضوعيا على نحو يخلي معه الواقع الخارجي مكانه للواقع الداخلي فلايكون للموضوعية من وجود الا في الوعي بالذات في صورة تمثل اوحدس روحي بحت . ...ولايستعمل الشاعر العنصر اللفظي الا بصفته وسيلة للتظهيرالمباشر..وينفصل بذلك الوعي الذهني الروحي عن العنصراللفظي ، لينطوي على نفسه [٢] .

ومن الطبيعي ان تتدّخل مفارقات الاسلوب وتتّبع اوتصاحب الظهور اللغوي ، فالشعر " يحتاج كل ماتتضمنه اللغة. و لايهمل ظلا دقيقا واحدا من الفرق في الكلمة"[٣] وفي الشعرفقط " تكشف اللغة عن طاقاتها جميعها لان مايتطلب الشعرمنها يبلغ اقصى هذه الطاقات" [٤].

ومازلنا نبحث في الجزء الاول من العملية الابداعية الشعرية ،فاذا انتقلنا الى الجزء الثاني الخاص بالمكون الاتصالي الذي تربطه وشائج كثيرة بالمنظومة الابداعية ، ستواجهنا قضية الفهم والتأويل والاسقاط الفردي والجماعي التاريخي على حدود النص ، وهذه واجهت مشاكل كثيرة في حصرها وتوجيهها ،لان المادةالاولى للتعامل الافتراضي بين الاطراف : اللغة ، بالمستوى الجديد الذي يقدمه الشاعر وبالنمط المفارق لمواضعات لغوية وسياقية اولا ،والمخالف لقوانين معرفية وفكرية يتدخل التاريخ في تصنيفها وتقديمها كثيرا .

ويتبادر السؤال المهم :من المنتِج وما المنتَج ؟ هل ان اللغة قائمة بالنص المبدع المبتكر الذي تتداخل في تحديده مستويات فكرية وشعورية وواقعية انتاجية،ولغوية محدّثة عن الخط الاول للسياق النفعي ،ام ان النص قام باللغة وابتنى صروحه اللاشعورية بالتوقيت والدافع اللغوي الذي ينتِجُ ويبدِعُ ؟ ام ان العملية مشتركة لاحدود واضحة لها ؟ وذلك سيدخلنا حتما في اولية الفكر واللغة واسبقيتهما .ولا نستطيع إنكار القول المأثور بكون اللغة وعاء للفكر [٥] وطريقة نموذجية للتقديم ،الذي طوره السلوكيون الى المستوى الاتصالي على يد "سكينر" اذ عد التفكير نوعا من السلوك البشري كالسلوك اللغوي ،فلايجوز الفصل بينهما ،فضلا عن اننا لايمكننا تجاهل الرأي المتطرف الاخر الذي جاء به العالم الامريكي "وورف" الذي رأى ان العالم كله عبارة عن انتاج لغوي، فاللغة تحدد الفكر وتسيطر عليه ، بل وتقدمّه للوجود ، وهي افكار تستهوي الباحث ويجد فيها ميدانا واسعا للبحث الذي يتضمن مستويات اجتماعية وقومية وبيئية.

والاولى ان نحتاط للاخذ بهذه الاراء ونحن نشرع في ولوج النص الذي يخرج عن الوظيفة الاتصالية/ النفعية الى مستويات تعبيرية وشعورية تتعلق بالادراك الابداعي ومقتضياته المحددة ،فاللغة وعاء من الاوعية التي يظهر بها الفكر والوعي المطور عن القوانين الموروثة ومستوياتها المدركة ، فضلا عن التعبير عن السلوك الفكري تتداخل فيها ادوات اجرائية اخرى غير اللغة، كاللون والرمز والاشارة والصوت .

وقد نمضي مع الاراء التي" لاتجرؤ على نفي الفكر من دون اللغة مطلقا اذ الفكر قابل للوجود هاجسا اوخاطرا او عابرا وهذا يصح ان نسميه باللغة الداخلية ،كما فعل بول شوشار. اما حين حضور اللغة فهي الاولى بالتقدمة لانها هي البنية المنتجة للاثر النصوصي ومن ذلك الفكر متجليا من خلال الدلالة بانواعها " [٦].

كل ذلك خاضع للتجريب والجدل الذي يصمت سنينا لينطلق تارة اخرى بمعاضدةمن رؤية علمية محدّثة اومكتشفة اومطوّرة ، ولكن بحثنا في النص اللغوي (الفني) يعيدنا الى نقطة الصفر، ويصيبنا

التردد في انتقاء مستوى الاختيارالحقيقي او المقنع الذي يكوّر امامنا منظومتين : الاولى تخص تبنين النص وعملية اخراجه ويدخل في ذلك المبدع مع اطراف متشابكة نوهنا بها قبل قليل ، والمنظومة الثانية: تخص التلقي وتلقف الخطاب المقدم وفهمه وتأويله ، وكل ذلك يجري بمستويات أدائية مختلفة من اللغة .فالمتلقي المتخصص يكون ميدان عمله النص المرتبط بعلائق مرئية اولامرئية (تاريخية) يستجمعها لتأويل المفردات والجمل والسياقات والتراكيب. وقراءة النص تأويل شامل للمكونات الجزئية الدقيقة المرتبطة بدلالات عميقة تقدم مستويات معنوية كثيرة يغامر الناقدفي اهمال جزء منها ، ويرى كثير من الباحثين ان القراءة النقدية حوار شامل مع النص واسئلة متواصلة لاتنقطع ، وتحرك دائم لاستجابات متبادلة احيانا ،وذلك دعم للجانب الفني المخفي من النص ، يقول الدكتور مصطفى ناصف [٧] : " ان دعم الجانب الظاهر وحده ليس من الوفاء لتجربة التأويل . تجربة التأويل تبحث اصلا عن المحذوف المحاور . كيف يتم قطع الحوار دون تقدير المحذوف، فالتأويل لايتركز .. على مايصرح به النص ..ومن الضروري ان نذهب الى ما وراء النص بحثا عن جانب محذوف لم يقله او لم يستطع الافصاح عنه ". وتلك مهمة الناقد الشاقة ،التي تتطلب مواضعات ومقاييس وخبرات ليس بالهين التخلي عن بعضها ، ولاسيما ان كـــان التعامل مع نص معرفي خاص كالشعر ،وهذا الضرب من النتاج صلته بالواقع صلة جمالية بالدرجة الاولى [٨]، وهذه ماهية تغيب حدودها واطرافها عن التلقي الساذج احادي الرؤية ظاهري النزعة ، الذي يجعل من النص الادبي (الشعري بخاصة) وقفا على تحصيل موضوعي وفكري بالامكان التعبير عنه بصيغة اداء علمي او تاريخي او فلسفي . وبامكاننا ضم النتاج العربي لهذا الاتجاه ، لقرنين من الزمان (التاسع عشر والعشرين) مع استثناءات بسيطة لاتشكل مناهج واضحة المعالم يمكن اتباعها وتطويرها بالاتجاه المقنع .

نقول ان الشعرلغة افتراضية ، مطورة عن المستوى النفعي التقريري ، ولغة الشعر ليست " لغة داخل لغة " [٩] كقول فاليري بل لغات داخل لغة ، وهي خاضعة لفعل التجريب اللغوي المتواصل اللفظي والسياقي ،وبذلك تتعدد مستويات الاداء الحواري بين الشاعر والمجموع المخاطب،وهذا يقترب او ينأى (بحسب القدرة والانجاز) من المستوى النفعي الاحادي للغة الحوار التي جرى عليها الاعتياد ، ولاننسى تغلغل محاور التلقي في عملية التبنين النصية وتأثيرها في عملية الابداع الشاملة التي حددها آيزر بمفهوم " القارىء الضمني " اذ يرى انه حالة نصية وعملية انتاج للمعنى على السواء .. وان المصطلح يدمج كلا من عملية تشييد النص للمعنى المحتمل ، من خلال عملية القراءة [١٠].ولسنا بصدد الشروع في تناول هذا الجانب من انتاج النص ، على الرغم من استغراقها لمستويات مهمة من عملية تأويل النصوص ولاسيّما في مجال التطبيق.

لقد واجهت صحة التأويل ثورات بحسب ما نوهنابه قبل قليل ،ومنها الثورة ضد الجمود والسكون والتعامل مع نتاج الماضي ، ومنها ايضا الثورة ضد تقنين المصطلحات البلاغية وجمودها بالطريقة المدرسية التي قدمها البلاغيون قديما ومضى عليها الباحثون في العصر الجديد من دون رفض يذكر ، فمازلنا نشهد دراسات تطبيقية مكثفة اكاديمية او بحثية تستهلك الجهد في عزل المصطلحات البلاغية والتأكد من ثبوتها وتحديدها بالهيأة المقننةالتي لاتجدي نفعا سوى تكثير الشواهد

بالطريقة النحوية التي كدست مئات المصطلحات الاعرابية فهذا فاعل وذلك مفعول وهذا تقدم وهذا تأخر، ذلك الذي يضيّق سعة الافق التأويلي ويحشر الفهم في حدود المصطلح الثابت عنوة ،لا ان يعقد حوارا وجدلا مستمرا مع النصوص ، واذ نعتذر للنحو ومستوياته الذي يتعامل بالمنطق التقريري للوضع اللغوي فاننا لانغفر للتعامل مع النصوص التعبيرية التي تحمل كنه الفن ومكنة الابداع والبراعة التي قدمتها اجيال شعرية ونثرية تكثفت عبر مر القرون . ونمضي مع الدكتور مصطفى ناصف الذي حاول اخراج الدراسات البلاغية من عالمنا المقنن الى عالم التجريب الادائي المنفتح في التعامل مع مفردات السياق وجدلية الاستعمال الخاص لبنية اللغة المطورّة (الفنيّة) ، فضلا عن بحوث الدكتور عبدالقادر الرباعي والدكتور كمال ابو ديب واعلام مصر التي كان لمجلة "فصول" اثر بالغ في تعريف القارىء العربي بنتاجهم الثر في العقدين الاخيرين من القرن العشرين ،ولانغفل عن نتاج المغرب العربي الذي اضاف نمطا خاصا من البحث ان استطاع ان يتخلص من التأثر الغربي وهيمنته الواضحة ،ونقول ان الفشل يعتور تطبيق المصطلحات الموروثة التي توقف التدفق الثر لاساليب الشعراء ، بل اثبت التأويل النصي عقمها وضعفها امام عبقرية هؤلاء ودقة التعبير في الاستعمال الخاص للمفردات والسياقات اللغوية العائمة .

وقد مضينا في دراستنا "بنائية الخطاب الشعري.1993 " [١١] على ذلك المنهج ، فضلا عن بعض البحوث ومنها الدراسة الموسومة: " في التنظير البلاغي الشعري " وحاولنا استبدال المصطلحات البلاغية الموروثة من تشبيه واستعارة وكناية .. بمصطلحات جديدة قد تسد ثغرات واضحة في البلاغة القديمة ، اذ ان العلاقات الدلالية ليست ثابتة بل خاضعة للتغيير والاستبدال فضلا عن خطل المصطلحات القديمة في التعبير عن مستوى السياقات التي تمثلها فعلاقة التشبيه مثلا ليست علاقة شبه في كثيرمن الاحيان بل انها قائمة على التقارن والتبادل الدلالي [١٢] ، فما بألُنا ان تغيّر شيء من اطراف هذه العلاقات او فُقد مثلا ، فذلك يضطرّ البلاغي الى تسمية مصطلح جديد ليُنقذ الفكرة والمفهوم ، وهكذا تتكاثر المصطلحات للجهل او لعقم الطريقة في التعامل مع السياقات النحوية والدلالية التي انشأها الشاعر بعبقريته وادراكه الفذ .

ان دينامية العمل الشعري تخضع لمواضعات ومقننات تشكيلية يصعب اخضاعها لمنظور نقدي واحد لاختلاف منطلقاتها المؤثرة في رسم السياقات ، فيؤثر ذلك (بالنتيجة) في تسلسل المحاور النقدية وتهيئتها على وفق اسلوب مقنع مرض ، ولن ينجو العمل النقدي ولاسيّما المنهج الذي يعتمد تحليل النص الى اولياته ويُعزى ذلك الى نسبية التأويل المحدّد للمقومات المكونة للنص ، المرتبط عميقا بمواضعات نفسية واجتماعية وتاريخية متعامدة تبثّ تأثيراتها في جوهر النص ومدركاته الوضعية الواسعة ، فيكون العمل النقدي افتراضا وتجريبا ولكن لايعتريه التطرف التقنيني في تناول الوقائع الاسلوبية للنصوص الشعرية . وهكذا فقد " زكّى التأويل .. فكرة الحوار لا فكرة التلقين والاصرار فكرة التغيير من جانب والثبات من جانب ..اننا نفهم لكي نتغير وان دوام العكوف على النص يغيّرنا ، الفهم اذا اداة في صناعة التغيير ومن خلال الارتباط المستمر بالنص امتحنت الثقافة العربية تماسكها وقوتها وحيويتها الجامعة بين الاصول والفروع بين الاجداد والابناء ،... والتأويل مبدأ اختبار للعلاقات العامة وتوقعاتها

..ونبذ الجمود والتعصب والكره والتعبير عن مبادىء التغيّر .." [١٣] .

الشاهد (1) :

يعمد الشاعر كثيرا الى نوع من الابلاغ الصوري من خلال علاقات تنعقد بين مفردات تنهض بالسياق في النص ، ومدركات (سياقية) ذهنية افتراضية ، وتتضح حدود هذا المكون باقامة انحراف في السياق الدلالي الفردي والجمعي لتقوية الفكرة وتعزيزها في المنظور النهائي للنص وهذا الانحراف قد يشمل مفردات يجري تعديلها سياقيا وذهنيا بعملية استبدال مقنعة (قد تكـون موروثة) وقد يشمل جملا تجتزأ عن بنية النص لتستبدل مؤقتا بأبنية وسياقات جديدة تكون مهمتها الاولى الاقناع والركوز في الذهن ، وذلك الانحراف أوالتحول نحو مستويات دلالية عميقة الذي يلجأ اليه الشاعر في تبنين الصورة لايمسّ القوانين اللغوية المتعارفة وانما يمسّ مستوى التوقّع والاعتياد ، وكتسمية جان كوهن لها " الملاءمة الدلالية " [١٤] فالمفردة بالمفهوم السياقي الوظيفي تبنى دلالتها تركيبيا اذ " تلتحق الدلالة بالتركيب والدلالة ليست هنا اكثرمن مجموع التأليفات المتحققّة لكلمة ما " [١٥] ، اي ان الاستعمال المعجمي للكلمة هو استعمال ناقص وتتكشّف دلالتها التي يراد اظهارها على مستوى السياق وذلك شيء معروف عند اهل البلاغة والنقد في العصور المختلفة، من ذلك قول بشار [١٦] :

غابَ القذى فشربْنا صَفْوَ ليلَتنا
حِبّينِ نَلهو ونَشكو الواحدَ الصّمَدا

بامكاننا تقرّي المفردات التي حوّلها الشاعر من المستوى المعجمي الى المستوى السياقي الذي لايُدرك الاّ(بتمثُّلاتٍ ذهنية) تُعقد في وعي المتلقي. فالفاظ مثل (القذى،شربنا ،صفو) تحولت كمنظومة متكاملة الى دلالات سياقيةجديدة ، وقد بدأت بالقذى الذي في المعنى المعجمي الغبار اوالقش او التبن الذي يعكّر صفوَ الماء ، الا ان الشاعر يقصد بها الواشي والرقيب ثم استهوى الشاعر ذلك التحول واستكمله بمتعلقات القذى : الشرب والصفو ، فبغياب القذى يمكن شرب الصافي من خمر او ماء . ولكن على المستوى الوظيفي للبيت يكون شرب صفاء الليلة بعد غياب القذى هو التمتع بالزمن الذي تستغرقه هذه الليلة التي يغيب فيها الحاسد او الواشي . واماالانحراف التركيبي فهو واقع في الجملة الشعرية : شربنا صفو ليلتنا اي ؛ شربنا ليلتنا الصافية (وهو من باب اضافة الصفة الى الموصوف) فاسناد ليلتنا الى شربنا هو انحراف في السياق المنطقي يتطلب اجراءً ذهنيا ليمكن العودة به الى ذلك السياق وهنا يمكن تقديم العلاقة المفترضة الاتية : تمتعنا بقضاء ليلتنا الخالية من الرقيب ، ان كان هاجسنا الاول الوصول الى المعنى ، فضلا عن التركيب الذي يشمل اكثر الشطر الثاني :(ونَخشى الواحد الصمدا) الذي يكتم معنى يكشفه المتلقي بالمواضعات والقوانين العامة : اذ سينأى الشاعر في خلوته مع الحبيبة عن خرق القوانين الاخلاقية والدينية فلاثالث لهما الا الله تعالى ... وقد تمكن الشاعر من جذب الانتباه الى هذا السياق من خلال سيطرته سياقيا على الشطر الثاني فضلا عن الامساك بزمام القافية والتنغيم الصوتي ، على الرغم من ان مفردة واحدة بامكانها اضعاف التركيب ودلالاته برمته ، لتوسّطها سياقيا ، وتأخرّها اعرابيا وهي لفظة (نلهو) فانْ تعاطف السامع قليلا مع المفردة التي افتتح بها الشطر(حِبّين) على وفق المنظور الاخلاقي الذي يبثّه التركيب (نخشى الواحد ..) ولكن هذا لايشفع للفعل (نلهو) الذي اقام الشاعر عليه السياق ، بل تقصّده قَصدا ،فضلا عن الوشائج الدلالية التي تربطه بلفظة (القَذى) الذي ان كان حاسدا او واشيا فهو رقيب غائب ...

الشاهد 2:

ولبشار قصيدة يطرق فيها مفارقات اسلوبية مكثّفة قد تغيب عن القراءة الاولى اذ يتسلّى المتلقي بدلالات المعنى الغنية فيفارق مقتضيات الاداء السياقي الدقيقة التي يجهد الشاعر لبلوغها ، وافتتاحها [١٧]:

تأبّدتْ برقةُ الرّوحاء فاللّبِبُ
فالمحدِثاتُ بحَوضى اهلُها ذهبُوا

وسنطرق ابياتا ثلاثة مجتزأة من مقطع الطلل المشوب بالنسيب :

سُقياً لمن ضَمّ بطنُ الخيفِ انهمُ
بانوا بأسماءَ تلكَ الهمّ والإرب
أئن منها إلى الأدنى إذا ذُكرتْ
كما يئِنُّ الى عوادّه الوَصبُ
بِجارةِ البيت همّ القلبِ محتضرٌ
إذا خلوتُ وماءُ العين ينسكبُ

ففي السياق (أئن منها إلى) يقوم حرف الجر بموازنة خاصة (موسيقيا ودلاليا) وقد اختصر الشاعر الاشارة الى الحبيبة بحرف الجر والضمير المتصل به (منها) وذلك مهم على صعيد التنغيم وشدّ المتلقي بالموسيقى الداخلية والمقابلة الاجرائية بحروف الجر (منها ..الى) وذلك اختصار وتركيز ، ولانه اعلَمَ المتلقّي بالمحبوبة في البيت السابق (بأسماء) باستعماله حرف الجر لصيق الاسم ، ولو قال (ان استعملناالاستبدال) : ائنُ من اسماءَ انْ ذُكرتْ ....كما يئِنّ ...لضعُفَ الخطاب تماما والقصد منه ، هنا سنفقد الضمير (ها) المتصل ب (من) وفيه تركيز موسيقي يكشف عن الانين ، ولاسيّما ان مُدّ الصوت به(من..ها) ففي الضمير اختصار لغوي لدلالة العلم (أسماء) فضلا عن التركيز الدلالي الذي يخرج عن اطار التحديد الذي فرضته الحروف القليلة الدالة على الضمير،كذلك إننا في حال الاستبدال المزعوم سنضطر الى حذف (الى الادنى) وفي ذلك هدم للمستوى الدلالي العالي الذي بلغته الجملة الشعرية. اما البيت العاشر(في الديوان) فتعتوره عدّة وقائع اسلوبية ،منها الابتداء بالجار والمجرور ونقول ذلك تجوزا على سياق القانون النحوي الذي يفرض الاولوية للخبر المقدم ان كان جارا ومجرورا في حين ان السياق الشعري يمنح فعل الابتداء لسياق الجار والمجرور(بجارة البيت) على المستوى الدلالي،ففعل المرأة اولى بالتقدمة على سياق(هم القلب المحتضر) فلاتعوز الشاعر القدرة الاسلوبية على تقديم الجملة الاسمية ـوهي في موقع المبتدأ المؤخر حالياـ على سياق الجار والمجرور، فضلا عن استغراق الدلالة الذي يبثّه سياقُ الشرط اذْ قام بفعل الاستثناء الدلالي لا الاعرابي فقط ، فتقديمه لشبه الجملة يأتي لتقريب شدة التعلق الى ذهن المتلقي اذ يقوم به حرف الجر (الباء) لصيق جارة البيت، كذلك (الجار) قريب جدا(مكانيا)، فضلا عن ورود لفظة (البيت)وهي رمز مكانيّ ايضا فيه معنى الثبوت والاستقرار الذي يشي بثبات الحب واستقراره ، فالمكان يستقرّ في الذهن بسهولة لانه محدّد ذهنيا، نابع عن تصورات اولى سريعة لاتلبث ان تثبت في الذهن ، وهو محتاج الى هذا السرعة لان لديه مهمة شاقة اخرى في البيت نفسه (اي تثبيت الدلالات الاخرى) . كان بامكانه استعمال لفظة ثانية كأن يقول : بجارةِ النفسِ همّ القلب محتضرٌ .... ولكنه لم يلجأ اليها ، فلاوقت لديه لتوضيح هذه الدلالة المركزة الغائبة عن التصور الاولي ، فبه حاجة الى نص كامل لفرد مستوياتها كما يفعل بشار في قصائده النسيبية الخالصة في الاعم الاغلب.ولكن القصيدة تتضمّن وقائع دلالية اخرى مهمة في المنظور النهائي للنص كبنية الممدوح في وحدة المدح القادمة ،فضلا عن ان الشاعر لم يُرِدْ ان يخرج المتلقي من اجواء المكان الذي طرقه في وحدة الطلل ومازال يواصل بث دلالاته من البيت الاول ، فهولايريد اولا مفاجأة المتلقي بانتقالة مضنية تتعب ذهنه

بالسياق المستبدل(بجارة القلب ..)، فضلا عن اضعاف المكوّن الدلالي الذي سعى لبنائه بطريقة تجعل المتلقي يتخلى عن ذلك المكون الذي اقامه الشاعر في الذهن الذي يخصّ " المكان" ومتعلقاته ، **فالمكان مرتكز حيوي مولد للرموز الدلالية** .وان مضينا في الاستبدال السياقي للكشف عن دلالات جديدة من خلال تقديم مكونات اسلوبية افتراضية ، باللجوء الى التقديم والتأخير الذي رغب به الشاعر لقصد الخلط في الخطاب وتعمده ، فاننا نقول : اذا خلوتُ بجارةِ البيت همّ النفس محتضرٌ..،هنا لا يكون الجار والمجرور خبر مقدم اذ كانت له الاولوية في الكلام ويصبح "هم النفس" اسم (يكون) المحذوفة بتقدير (همّ النفس محتضر) ، والذي ينسف هذا، الجملة الحالية القادمة (وماء العين ينسكب) التي تجبر المتلقي على ربطها بالشرط السابق ..، فاذا كان الخلو بجارة البيت يحضر هم النفس ، فلم ماء العين ينسكب ؟ الامر الذي يربط الجملة الحالية اكثر بجملة الشرط ، خلا(بنفسه لابجارة البيت) كان ماء العين منسكبا لانها غير موجودة معه ، في حين ان الهمّ (محتضر) اي حاضر موجود في الحال ، وقد تشكل الباء التي افتتح بها البيت مفترقا سياقيا جديدا (بجارة البيت) اي بسبب :بسببها وهذا يتضمن معنى الوجود، السياقي والدلالي (لاسماء) الذي يشيع في الشطر الاول كذلك الهمّ الحاضرُ ، فان انتقلنا الى الشطر الثاني كان الحضور للذات (خلوت) وماء العين المنسكب.

ويحسم الامر سياق القانون النحوي قطعا، فالجملة الشرطية (اذا خلوت) لايمكن ان تكون (بجارة البيت) لان عامل الشرط متقدم ، و(اذا) لها الاولوية في الكلام ، كذلك فان (اذا) مضاف وخلوت مضاف اليه فلايمكن ان يرتبط المضاف اليه (بجارة البيت) ويترك المضاف، وبذلك يتعاضد السياقان النحوي والدلالي في تقديم فرضية القصد التي يرغب بها الشاعر وبذلك يفقد المصطلح النحوي تأثيره ويخلي الساحة لمفترضات البنية وواقعها الدلالي .

الشاهد 3 :

من المشاكل التي تعترض قراءة النص وتأويله في عالمنا العربي المعاصر ، ضعف الالمام بالقوانين النحوية لسعتها وعمقها وصعوبتها ، وظلت الثورات الحديثة على النحو القديم وضرورة تركيزه واختصاره والكفّ عن افتراضات التوهّم والتجوّز والذكر والحذف ، ضعيفة لاتقوى على الارث النحوي الواسع نتاج قرون طويلة ، فبُني حاجز كبير بين المتلقي العربي وكثير من النصوص التي تتطلب تأويلا نحويا جادّا ليفكّ شفراتها كما يقال ، فمابالُنا عند التعامل مع النصوص الشعرية للعصر الجاهلي او نتاج القرنين الاول والثاني والثالث ومابعدها . ان التعامل مع هؤلاء به حاجة الى خبرة نحوية ولغوية للالمـــام بمفترضات النصوص ومتعلقاتها الدلالية ...، ومابالُنا ايضا اذا كان التأويل يمضي على نص يمثّل النضج الشامل في القصيدة العربية بل وخاتمتها كقول اكثرالنقاد في عصره وبعد عصره ؛ انه نص المتنبي الذي بلغ قدرة خاصة واداءً عاليا في مستوى التعبير والتأثير، ذلك الشاعر الذي خرج عن خصوصية مآسي الفرد ومشكلات التعامل مع مفردات الحياة ، فحاول تخليقها وتركيبها بمادة الفن قوام ذلك الخطاب والمقول الذي تخطّى مفردات الصياغة والاساليب الاعتيادية او المتوقّعة ومضى بخطاب لايحدّه شيء بجدوى او بلا جـــدوى بأمل او من دونه [١٨] ، مع المتنبي يحتاج الباحث الى قدرة خاصة واستيعاب لمستويات النحو وتحولاته ، ولقد واجه النحاة واللغويون الذين عاصروه كابن جني(393) وغيرهم مشكلات التعامل مع نص المتنبي اذ كان يتفوّق عليهم ببراعته في الاسلوب وفي الاستعمال الخاص ولاسيّما انه كان كوفيّ النزعة وهي

المدرسة التي تخرج عن القياس ، فكيف بعصرنا هذا ؟ . لابد لنا من استرجاع الموروث وتنقيته وتقرّي حدوده ،فالنحو والاعراب ـ على الاخص ـ بحث عن العلاقة بين نظام عام وامثلة خاصة وهو ذاكرة جماعية او انساق مشتركة تأخذ شكل مجموع خاص ، والنحو ليس مجرد وصف لنظام الكلمات ، فاذا بحثنا في النص وعلاقاته النحوية فنحن نستجمع فكرة القانون وفكرة التمثّل الشخصي للقانون ، فنحن الان قلّ ان نحفلَ بالنحو وبحيوية نظامه ..، فالتأويل عندنا اقرب الى التجربة الفردية [١٩]، بخلاف نظرة القدماء(ولاسيّما عبد القاهر) الى النصوص اذ كانت تجربتهم جماعية استقرائية ، كان علينا تطويرها في العصر الحاضر لا ان نجعلها وقفا ونعتمد اصولا عالمية نجعلها موروثا لنا مبتدئين معها من الصفر .

ولدينا شاهد على الخبرة النحوية التي تفوّق فيها المتنبي من ضمن الاف الشواهد التي تحتاج استقراءً خاصا وجديدا ، ولابد ان تكون تقيّلا نشطا لدراسات مهمة قامت حول المتنبي عاصرته او جاءت بعد عصره ولاسيّما المؤلف المهم:"شرح مشكل ابيات المتنبي" للعالم النحوي (ابن سيدة 485ه) [٢٠] الذي حاول تأويل الابيات المشكلة في ديوانه. يقول المتنبي في القصيدة التي مدح فيها ابا ايّوب احمد بن عمران وهي من قصائده الشامية [٢١]:

تكبو وراءَك يابنَ احمدَ قُرّحٌ
ليستْ قوائمُهنّ من آلاتِـها

وافتتاحُ هذه القصيدة الغزلي :

سِربٌ مَحاسنهُ حُرمْتُ ذواتَها
داني الصفات بعيدُ مَوصوفاتِها

وقد نعد هذا البيت مرتبطا بمقطع الرحلة المختلط بالذات الذي يتخلّص الشاعر فيه ببراعة الى المدح في البيت :

ومطالب بمَقانب غادرتـُـها
اقواتُ وحشٍ كُنّ من اقواتِها

فما زال الشاعر مستغرقا بوصف الجياد ومتعلقاتها ولاسيّما الصفات التي تمثلها من شجاعة وقوة ووصف للمواقف الاختبارية التي يمرّ بها المقاتلون ونراه يتخلص كليا للممدوح في البيت :

سُقيتْ منابتُها التي سَقت الوَرى
بيدَي ابي ايّوب خيرِ نباتِها

ولكنه يعود لوصف الجياد (وبمستوىً دلالي جديد) غير مغادرٍ لوصف ممدوحه في البيت المقصود :

تكبُو وراءَك يابنَ احمدَ قُرّحٌ
ليستْ قوائمُهنّ من الاتـِها

لسنا بصدد الكشف عن الوقائع الموضوعية والفكرية ، ولاالمستويات البنائية التركيبية للنص فليس من مَهمّة البحث ذلك ، ونعود الى مابدأنا به اذ قلنا ان النحوي ابن سيدة ذكر بعضاً من ابيات هذه القصيدة بعدّها ابياتا مُشكلة ومنهاالافتتاح ، كذلك بعض المؤلفات التي تناولت مشكلات ابيات المتنبي ومنها "شرح المشكل من شعر المتنبي" لابن قطاع الصقلي (515) .

قال ابن سيدة في الكشف عن بعض المفارقات الاسلوبية والنحوية للبيت المقصود : " القُرّح هنا كناية عن الرجال الكهول ، المذكين ، واصله في الخيل واحدها قارح وهوالذي اتى عليه خمس سنين من نتاجه ، فشبّه الممدوح بفرسٍ جواد وشبّه مبارزيه بخيل قُرّح ، كقوله :

فدىً لابي المسك الكرامُ فانّه
سوابقُ خيلٍ يَهتدينَ بأدْهمِ

اي بفرس ادهم : وخصّه بالدُهمة لانه عَنى به كافورا " ويعرّج ابن سيدة على المشكل في البيت بقوله [٢٢] : " وقوله " ليستْ قوائمُهنّ من آلاتها" اي : ليست قوائمها الات لها؛ [لانها تعثر وتكبو وتضعف عن مجاراتك ، فكأن هذه القوائم ليست من الاتها] اذ لو كانت من الات لها لنصرتْها ولم تخذْها وانمّا قوائمها من الاتِك انت لدلالتها على سبقك اذ أكبّت هذه القُرّح من ورائك فهنّ آلاتك

المبيّنة لفضلك لا آلاتها لانّ من نَصرك وخذلَ مناوئيك ، فانما هو [الة] لك لالمناوئيك وان كان اهلا له وجزءا منه كقوله تعالى : (يانوح انه ليس من اهلك) [٢٣] اي ليس من انصارك ولامعاضديك ، انما هو من اعدائك ولم ينفِ انه ابنهُ حقيقةً ، لان نساء الانبياء لم يفجرْنَ . وذكر القوائم هنا لذكره الخيل ذهابا الى الصنعة وانما القوائم هنا كناية عن الخصال والفضائل النفسانية . وقيل ان الضمير في "الاتها " ل"ورائك" [أي] لايتّبعك الا خيل قوائمها اثبت من قوائم هذه القرّح، واماقوائم هذه فمقصّرة عن متابعتك والصبر على مجاراتك " [٢٤].

ولو استقرينا اراء الشراح في هذا البيت ، نلحظ تشابها واضحا فيما بينها فكل ينقل عن الاخر واغلبهم عن ابن جني . يقول ابو العلاء(449) في معجزه [٢٥] : " والقرّح : جمع قارح وهو الفرس اذا دخل في السادسة ، وطلعت قوارحه ، وهي انيابه ، وقال ابن جني : الهاء في (آلاتها) تعود الى ورائك ، لانها مؤنثة أي ؛ ليست قوائم تجاريك ، من آلات جري خلفك ، شبّه الممدوح بفرس سابق ، وهل من يباريه في المجد خيلا قرّحا تجري وراءه . يقول : من جاراك كبا خلفك وخانَته قوائمه لانها ليست من آلاتِ الجري خلفك : اي من باراك في مجدك عَجز عن سعيك لانه ليس له آلة كآلتك . وقيل : ان الهاء في آلاتها ترجع الى القرّح . يعني ان القرّح اذا اتبعتك وطلبت لحاقك كبتْ ، فكأن قوائمها ليست من آلاتها ، لانها تنصرف عن ارادتها ، ولكنها آلة لتلك ، من حيث دلّت على سبقك ، واظهرت قصورها عن لحاقك ، فكأنك استعنت بها على اظهار عجز من يسابقك " .ولايخرج الواحدي عن ذلك في شرحه لديوان المتنبي بقوله [٢٦]:" القرّح جمع قارح من الخيل وهو الذي أتى عليه خمس سنين واستكمل قوته اي ؛ قوائمهن لاتصلحُ لاتّباعك في طريقك والهاء من الاتِها تعود الى وراء وهي مؤنثة وتصغيرها وريّة بالتاء وجوّز ان تعود الى القرّح اي انها اذا اتّبعتْك لم تُعنها قوائمها فليست من الاتها وهذا مثل يريد ان الكبار والفحول اذا راموا لحاقك في مدى الكرم كبوا ولم يلحقوك والمعنى ان سبيلك في العلى تخفى وعورته على من تبِعك فيعثر وان كان قويّا كالقارح من الخيل " . وفي اعراب بعض المفردات المشكلة يقول شارح ديوان المتنبي ابو البقاء العكبري [٢٧] :" يجوز ان تكون الهاء عائدة الى القرح ، اي انها اذا تبعتك لم تعنها قوائمها ، فليست من الاتِها ، وهذا مثل يريدُ ان الكبار والفحول اذا راموا لحاقَك في مدى الكرم ، عثروا وكبوا ولم يُلحقوك . والمعنى : ان سبيلك في العلا يخفى على من تبعك فيعثر . وان كان قويّا كالقارح من الخيل ".

ولابن القطاع الصقلي(515) مؤلف قدير موسوم ب" شرح المشكل من شعر المتنبي" حقّقه استاذنا المرحوم الاستاذ الدكتور محسن غياض في عام 1977 ، ويجعل البيت المقصود من الابيات المشكلة ايضا ويعلّق بقوله [٢٨]: " الهاء في قوله "آلاتها" عائدة على قوله (تكبو وراءك) لان وراءك ظرف يُذكّر ويؤنّث ويكون بمعنى وراء وامام وهو من الاضداد ، قال تعالى " وكان وراءهم ملكٌ يأخذُ كل سفينةٍ غَصْبا " [٢٩] اي ؛ امامَهم . ومعنى البيت : ليستْ قوائم هذه الخيل من الاتِ وراءك ، اي ليست ممّا يكون خلفك فيطردك ".

بقي ان نعرّج على ديوان المتنبي بتقديم د. عبد الوهاب عزّام والفضل في هذه النسخة انها تورد اقوال المتنبي حول القصائد فضلا عن تعليقات قيّمة للشاعر .

ويرد في التعليقات حول القصيدة كلام ابن جني عن البيت [٣٠] :" لقيتُ ابا الطيب المتنبي رحمه الله بآمد ـ وقد قدِمَها مع سيف الدولة رضي الله عنه في صفر من سنة 45 ـ فأملى علي قصائد فيها هذه القصيدة ، فلمّا كتبنا هذا البيت التفتَ اليّ والى جماعة من اهل البلد كانوا معي حوله يكتبون فقال : هذه الهاء في الاتها على اي شيء تعود ؟ فقال

بعضنا : تعود على القُرّح ، وقال بعضنا: تعودُ على القوائم فقال ابو الطيب : لو كان الامر كما ذكرتُم لم يكن لذلك معنى ، ولكنها تعود على "ورائك" لان الوراء مؤنّثة وتصغيرها وريّة ، اي ليست قوائم هذه القرّح من الات ورائك فتلحقك وكذلك قدّام ايضا وتصغيرُها قديديمية ،وانشد:

(اذا انا لم اومن عليك ولم يكن)
لقاؤك الأمن وراء وراء "

هنا يتضّح لنا ان الرأي القائل بعَود الضمير في "الاتها" على وراء هو للمتنبي اصلا نقله ابن جني عنه ، وردّده بعده الشراح كما ذكرنا ، واظن انه لولم يقدم رأيه في البيت لظل الشراح على الرأيين في كون عود الضمير على قرّح او آلاتها بحسب ما ارى ، هذا شيء والشيء الاخر ان ابن القطاع بأيراده الاية القرانية الكريمة " وكان وراءَهم ملكٌ يأخذُ كلّ سفينةٍغَصْبا " كشف عن المراد ب"وراءك " اي: امامهم ، او لنقل : عليهم ملك ، فيكون المعنى ؛ انه ليست قوائم هذه الخيل من الات ورائك ، اي ليست ممّا يكون خلفك فيطردك ، ويقوي هذا الرأي رأي ابن سيدة الذي ابتدأ بأرجاع الضمير الى قرّح وجمعها ب"الاتها " فالالات هي جزءمن القرّح ، فوحّد بينهما لانها جزء من الكل وفي النهاية فلافعل لها ، اذا اكبّت هذه القرّح من ورائك فهنّ الاتك المبيّنة لفضلك لا الاتها هي ... لانّ من نصرَك وخذلَ مناوئيك فانما هو "الة" لك لالمناوئيك حتى وان كان جزءا منه ، والمقوّي لورود هذه الدلالة وجود (ليست) التي نفت كون الالات جزءا من القرّح في الحال الجديد ، ويكشف ابن سيدة عن عمق هذه الدلالة بأيراد الاية القرآنية : " يانوح انه ليس من اهلك " اي ليس من انصارك ولامعاضديك ، انما هو من اعدائك ولم ينف انه ابنه حقيقة لان نساء الانبياء لم يفجُرْنَ . فهنا يكون رأي المتنبي في "وراء" وعَود الضمير عليها من باب استغراق الدلالة للجزء وللكل فالقوائم جزءٌ من "قرّح" حتما ، وهي الات بالمعنى العام ، ولكنها هنا في المستوى الجديد تخلّت عن فعلها وادائها بسبب قدرتك وقوتك واحاطتك ايها الممدوح ، وانما رغبَ المتنبي في حَصر الدلالة بالظرف "وراء " لكونه المقصود من البيت ، ولتخصيصه به كمستوى اشمل في الصياغة ، و"وراء" هي دافع القوة ومؤدّيها .. فضلا عن ان (ليست) لاتفاجيء السامع بنفي "الالات" عن مكوّن القوة الذي يمضي خلف الممدوح ، لان هذه الدلالة يدعمُها الشاعر بافتتاح البيت اصلا بالفعل "تكبو" الذي ركز معنى الضعف عن مجاراة الممدوح واللحاق به ، باي شيء ..، ويدعم هذا القول ويكشف عنه كلام المعري في معجزه باضافة كون الالات ساندة له هو اذ تخلّت عن فعلها مع "القرّح " وهذا شيء جديد ، بقوله : " فكأن قوائمها ليست من الاتها لانها تنصرفُ عن ارادتِها ، ولكنها الةٌ لتلك ، من حيث دلّت على سبقك واظهرتْ قصورَها عن لحاقك ، فكأنّك استعنتَ بها على اظهار عَجز من يُسـابقك ". ولابأس ان يضاف لذلك ايضا ، كلام ابن سيدة في نهاية تعليقه اذ يخصص الدلالة اكثر بالظرف "وراءك" بقوله :" لايتبعُك الاخيلٌ قوائمهما اثبت من قوائم هذه القرّح ، واما قوائم هذه فمقصّرة عن متابعتك والصّبر على مجاراتك " .

قد يكون الامر كذلك لولا الفعل " تكبو" اذ يسيطرُعلى المستوى النهائي للمعنى العميق فيرفضُ وجودَ مثل هذه الخيل التي تتبعُ ممدوحَه ، فهي دلالةٌ قطعيةٌ لايُمكن حملها على شيء اخر غير الذي ذكرنا .